

الفصل الرابع

التوكل ورعاية الأسباب

التوكل - الذى أمر به القرآن والسُّنة - لا ينافى رعاية الأسباب ، التى أقام الله عليها نظام هذا الكون ، وأجرى عليها سُنَّته ، ومضت بها أقداره ، وحكم بها شرعه .

يقول الأستاذ أبو القاسم القشيري فى « رسالته » :

« واعلم أن التوكل محل القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قِبَل الله تعالى ، فإن تعسرَّ شىء فبتقديره ، وإن اتفق فبتيسيره » (١) .

واستدل لذلك بالحديث المشهور عن أنس بن مالك قال : جاء رجل على ناقة له ، فقال : يا رسول الله ؛ أدعها وأتوكل ؟ أو أرسلها وأتوكل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اعقلها وتوكل » (٢) .

وهذا نص حاسم صريح فى مراعاة الأسباب ، وأنها لا تنافى التوكل .

* *

(١) انظر : الرسالة القشيرية . تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (١/٣٦٨) .

(٢) حديث أنس رواه الترمذى (٢٥١٧) واستغربه ، ولكن له شاهد من حديث عمرو بن أمية الضمري رواه ابن حبان فى صحيحه « الإحسان » (٧٣١) والحاكم فى « المستدرک » (٦٢٣/٣) بلفظ « قَيَّدَها وتوكل » وقال الذهبى : سنده جيد . وأورده الميثمى فى المجمع (٣٠٣/١٠) وقال : رواه الطبرانى من طرق ، ورجال أحدها رجال الصحيح ، غير يعقوب بن عبد الله بن عمرو بن أمية الضمري وهو ثقة .

● حكايات بعض الصوفية فى إهمال الأسباب :

ومع ذلك روى القشيري رحمه الله حكايات كثيرة عن عدد من مشايخ الصوفية ، تركوا الأسباب ، بل رفضوها عمداً ، ودخلوا البادية المقفرة من غير زاد ، متوكلين على الله تعالى ، منكرين على من يتعلق بسبب ، فى أى وجه ، وأية صورة .

ونقل الإمام الغزالي هذه الحكايات فى كتابه « منهاج العابدين » لتكون نموذجاً يُحتذى للسائرين المريدين للآخرة ، والسالكين للطريق إلى الله تعالى . كما ذكرها فى « الإحياء » محاولاً تبريرها .

يقول بعضهم : حججت أربع عشرة حَجَّةً ، حافياً ، على التوكل . فكان يدخل فى رجلى شوكة ، فأذكر أنى قد اعتقدت على نفسى التوكل ، فأحكيها فى الأرض وأمشى !

يعنى أنه يرى إخراج الشوكة المؤذية من رجله منافضاً للتوكل الذى اعتقده .

ويقول آخر : إنى لأستحيى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل (أى عزمت عليه) لثلاثين يوماً زاداً أتزود به !

وقال آخر : دخلتُ البادية مرة بغير زاد ، فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة (القرية أو محطة الاستراحة) من بعيد فسررتُ بأنى قد وصلت ، ثم فكرت فى نفسى : أنى سكنت واتكلت على غيره تعالى ، فأليت ألا أدخل المرحلة ، حتى أُحمل إليها . فحفرتُ لنفسى فى الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى ! فسمعوا صوتاً فى نصف الليل عالياً يقول : يا أهل البادية ؛ إن الله تعالى ولياً حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه . . فجاءنى جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية !

ومثل ذلك : من وقع فى بئر فنازعته نفسه أن يستغيث ، فقال : أراد الله ألا أستغيث . . وممر رجلان ، فقال أحدهما للآخر : تعال نسد رأس هذه

البئر لثلاث يقع فيها أحد . . وشرعا يفعلان . وقد همَّ أن يصيح ، ثم قال فى نفسه : أصبح (أى أشكو) إلى مَنْ هو أقرب منهما ! إلى الله سبحانه . وسكن لهذا الخاطر ، فيما هو بعد ساعة ، إذا هو بشيء جاء ، وكشف عن رأس البئر ، وأدلى رجله ، وكأنه يقول له : تعلق بى ، قال : فتعلّقتُ به ، فأخرجنى ، فإذا سيع (١) .

والحكايات من هذا النوع - الذى يعتبره الفقهاء إلقاء بالنفس إلى التهلكة - كثيرة (٢) .



● مخالفة هذه الحكايات للسُّنَّة الصحيحة :

ولكن العارفين الراسخين يعلمون أن السُّنَّة على خلاف ما يُحكى عن هؤلاء .

يقول شيخ القوم وسيدهم سهل بن عبد الله : مَنْ طعن فى الحركة (يعنى السعى والأخذ بالأسباب) فقد طعن فى السُّنَّة ، وَمَنْ طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان .

وذلك أن سُنَّة رسول الله ﷺ - القولية والعملية والتقريرية - الأخذ بالأسباب ، والدعوة إلى مراعاتها ، مع تعلق القلب بالله تعالى ، مسبب الأسباب ، وصاحب الخلق والأمر .

فهو يقول للأعرابى فى شأن ناقته : « اعقلها وتوكل » .

ويقول : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو

(١) قد يُعترض عليه بأنه ينبغى ألا يتعلق به حتى يتم توكله ، لأنه لون من الأخذ بالأسباب !

(٢) انظر : باب التوكل من « الرسالة » للشَّيْخ (١/٣٦٧ - ٣٨٢) . بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وكذلك : « منهاج العابدين » للغزالي .

خماصاً ، وتروح بطاناً » ، وفيه إشارة إلى التسبب ، لأنه لم يضمن لها الرواح بطاناً ، إلا بعد أن غدت خماصاً ، والغدو حركة وانتشار .

وأحاديثه عليه الصلاة والسلام - في الدعوة إلى العمل والكسب الحلال ، عن طريق الزرع والغرس ، والصناعة والتجارة والاحتراف - ولو بالاحتطاب - كثيرة وشهيرة . وحسبنا منها قوله : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » (١) ، وحديثه الآخر : « إن قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلةٌ ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها » (٢) .

وقد رأيناه صلى الله عليه وسلم يعد العدة ، ويهيئ الأسباب في غزواته وسراياه ، ويتخذ الاحتياطات اللازمة لسلامة جيشه ، والمحافظة على جنوده ، ويبعث العيون والطلائع لمعرفة أخبار الأعداء ، والتعرف على نقاط الضعف عندهم . وهذا يبين لمن قرأ سيرته ، ودرس مغازيه صلى الله عليه وسلم .

ومن روائع ما قرأناه في سُنَّته وسيرته صلى الله عليه وسلم في الأخذ بالأسباب : استخدامه « أسلوب الإحصاء » منذ وقت مبكر من إقامة الدولة الإسلامية ، أى بعد الهجرة إلى المدينة . فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : « احصوا لى كم يلفظ بالإسلام » حتى لفظة « الإحصاء » استعملها .

وفى رواية للبخارى فى صحيحه أنه قال : « اكتبوا لى من يلفظ بالإسلام من الناس » . قال حذيفة : فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل . ويبدو أن إحصاء الرجال القادرين على حمل السلاح كان هو المقصود بالقصد الأول .

فهو ليس إذن عدداً شفهياً . بل هو إحصاء كتابى - لقوله : « اكتبوا لى » -

(١) رواه البخارى عن المقدم .

(٢) رواه أحمد والبخارى فى « الأدب المفرد » عن أنس بسند صحيح .

يُراد تدوينه وتسجيله ، ليعرف منه عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التي يستطيع أن يواجه بها أعداءه المتربصين به ، وما أكثرهم .

كما أن من سيرته وسُنَّته صلى الله عليه وسلم التخطيط للمستقبل ، وإعداد العدة للغد ، كما بيَّنَّا ذلك بأدلته في كتبنا من قبل (١) .

كما بيَّنَّا أن ذلك لا يناقض مبدأ التوكل على الله تعالى .

* *

• بل هي مخالفة لسُنن الأنبياء عامة :

وليست هذه سُنَّة محمد - عليه الصلاة والسلام - وحده ، بل هي سُنَّة رُسُل الله وأنبيائه من قبله ، كما هو بين من قصص القرآن عنهم .

فهذا نوح عليه السلام يصنع الفلك كما أمره الله تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٢) لتكون أداة الإنقاذ له ولمن آمن معه إذا جاء الطوفان ، وكان في قُدرة الله أن يحجز الماء عنه ، وعن من معه ، أو يحملهم فوق الماء بغير سفينة ، ولكن الله أراد أن يُعلِّمنا أن قدرته تعمل من خلال الأسباب التي أوجدها أيضاً . قال تعالى عن نوح : ﴿ قَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ (٣) .

وهذا يعقوب عليه السلام يقول ليوسف بعد أن ذكر له رؤياه : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ (٤) ، ونراه بعد ذلك يخاف على بنيه عند توجههم إلى مصر ، فيوصيهم قائلاً : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ

(١) انظر على سبيل المثال : كتابنا « الرسول والعلم » ص ٤٣ - ٤٨ - طبع مؤسسة الرسالة . بيروت ، ودار الصحوة . مصر .

(٢) هود : ٣٧ (٣) القمَر : ١٠ - ١٤ (٤) يوسف : ٥

وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١﴾ .

وسواء أكان يخشى عليهم العَيْن - كما قيل - أو يخشى أمراً آخر يتعلق بالسياسة ، فقد أعطى الأسباب حقها ، وترك النتائج لله تعالى ، ولحكمه الكونى فى الخلق ، وهنا يكون التوكل حقاً : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وهذا يوسف الصديق عليه السلام يضع لإنقاذ مصر من القحط والمجاعة خطة خمس عشرية ، وقام هو على تنفيذها ، أساسها زيادة الإنتاج فى سنوات الخصوبة السبع ، مع تقليل الاستهلاك ، وخزن القمح فى سنبله « إلا قليلاً مما يأكلون » ، ثم الاستهلاك بقدر وحساب - من المخزون - خلال سنوات الجذب ، بحيث يكفى السبع الشداد كلها ، كما أشار إلى ذلك القرآن : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ (٢) . وفى قوله : ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يفيد أن الاستهلاك مقدّر ومحسوب ، مثل التوزيع بالبطاقات ونحو ذلك ، وفى قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ إشارة إلى استبقاء بعض الحبوب لتستخدم بذوراً عندما يجىء الغيث ويبعث الله الممء . وإلا لم يكن للماء فائدة إذا انعدمت البذور .

وقد قام يوسف بهذه المهمة ، ونجى الله على يديه مصر وما حولها من البلاد ، ببركة هذا التخطيط المحسوب ، ولا يضير ذلك أن كان أساسه رؤيا صادقة ، فالمهم أن الرؤيا أفادت علماً بمشكلة وأزمة ، فطلبت حلاً ، وكانت خطة يوسف هى الحل ، ولم يكن فى ذلك ما ينافى التوكل على الله تعالى ، كيف وقد قام عليه نبي مرسل ، وسجله الله فى أعظم كتبه .

وهذا موسى عليه السلام حين سار بأهله من مدين ، راجعاً إلى مصر ، آنس

من جانب الطور ناراً ، فقال لأهله : ﴿ اْمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (١) وسعى إلى موضع النار ، ولم يجلس حتى يأتيه الخبر ، أو الجذوة ، اتكالا على الله تبارك وتعالى .

ونجده عليه السلام حين سار ومعه فتاه ليلقى العبد الصالح - الخضر عليه السلام - عند مجمع البحرين ، يصحب معه زاده وغداه ، ويقول لفتاه : ﴿ آتَانَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ (٢) . وحين أمره الله بالخروج من مصر قال له : ﴿ فَاسْرِعْ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ (٣) وذلك ليكون الليل ستاراً له من فرعون وملئه .

ويحدثنا القرآن عن داود فيقول : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لْتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ (٥) ؛ فعمله في صناعة الدروع السابغات ، التي تحصن لأبسيها وتحفظهم من بأس العدو وضرباته . ولم ير القرآن عمل داود هذا مناقضاً للتوكل على الله .

وقد أمر الله تعالى الصديقة البتول مريم عليها السلام أن تهز بجذع النخلة ليتساقط عليها الرطب ، رعاية للأخذ بالأسباب ظاهراً ، وإن كان الأمر كله آية وكرامة لمريم ، قال تعالى : ﴿ وَهَزَيْ إِلَيْكَ الْجِذْعَ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ (٦) .

وفى ذلك يقول الشاعر :

توَكَّلْ على الرحمن في الأمر كله ولا ترغِبْ في العجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم : وهزِّي إليك الجذع يساقط الرطب ؟

(١) القصص : ٢٩ (٢) الكهف : ٦٢ (٣) الدخان : ٢٣
(٤) الأنبياء : ٨٠ (٥) سبأ : ١٠ - ١١ (٦) مريم : ٢٥ - ٢٦

ولو شاء أن تحنيه من غير هزة جنته ، ولكن كل شيء له سبب

وفتية أهل الكهف الذين أثنى الله عليهم ، وخلد ذكرهم في كتابه ، وقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١) حين أووا إلى الكهف حملوا معهم بعض النقود من (الورق) أى الفضة ، ليستطيعوا بها شراء بعض ما يريدون ، كما دلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ (٢) ولم يكن ذلك منافياً لتوكلهم على الله تعالى .

* *

• القرآن يأمر برعاية الأسباب :

وها هو القرآن يأمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٤) .

ويأمر بالصلاة المعروفة باسم « صلاة الخوف » فى الحرب ، فيدعو إلى تقسيم المقاتلين إلى قسمين : قسم يُصَلَّى وراء الإمام ، وقسم فى مواجهة العدو ، ويوصى بأخذ الحذر والسلاح ، حتى لا يهتبل العدو فرصة اشتغالهم بالصلاة فيميل عليهم ميلاً واحدة . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى

(٢) الكهف : ١٩

(١) الكهف : ١٣

(٤) الأنفال : ٦٠

(٣) النساء : ٧١

مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخَذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١﴾ .

هذا فى جانب الحرب والإعداد للأعداء .

وفى جانب الرزق ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٢) فهذا أمر
بالمشى فى مناكب الأرض .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ
فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإذا
قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿٣﴾ فهذا هو
شأن المسلم : عمل وبيع قبل الصلاة ، وسعى وانتشار فى الأرض بعد
الصلاة .

وقد وصف الله تعالى رُؤَاد بيوته التى أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ،
فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ رجالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴿٤﴾ فلم يصفهم بعمالة ولا بطالة ،
بل جعل لهم تجارة وبيعاً ، فهم « رجال أعمال » ولكن ذلك لا يلهيهم
ولا يشغلهم عن ذكر الله ، وأداء حق الله .

وقال تعالى فى شأن الحج : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

جاء عن ابن عباس أن أناساً من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ،

(٣) الجمعة : ٩ - ١٠

(٢) الملك : ١٥

(١) النساء : ١٠٢

(٥) البقرة : ١٩٧

(٤) النور : ٣٦ - ٣٧

ويقولون : نحن المتوكلون ! فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأُنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا ... ﴾ الآية (١) .



● هَدَى الصحابة والتابعين فى مراعاة الأسباب :

وَمَنْ نَظَرَ فى حال أصحاب رسول الله ﷺ - وهم خير قرون هذه الأمة وأفضل أجيالها - وجدهم يكدحون ويعملون لمعاشهم ، ولم ينقص ذلك من توكلهم على الله تعالى .

كان المهاجرون فى مجموعهم أهل تجارة ، وكان الأنصار أهل زرع . ولما عرض سعد بن الربيع الأنصارى على عبد الرحمن بن عوف أن يقاسمه ماله وداره وأهله ، قال له : بارك الله لك فى مالك وأهلك ودارك ، إنما أنا امرؤ تاجر ، فدلونى على السوق !

وعمر بن الخطاب يقول بعد سماع حديث الاستئذان ثلاثاً من أبى موسى الأشعرى ، وشهادة أبى سعيد الخدرى بتأكيده : ألهانى عنه الصفق بالأسواق .

وأبو بكر ، حينما بويع بالخلافة ، أراد يذهب إلى السوق - على عادته - يقتات لأهله ، ويتجر ليكسب لهم ما يكفيهم . وهذا - كما يقول أبو طالب المكى - فى أتم أحواله ، حين أُهِّل للخلافة وأقيم مقامه النبوة ، حتى اجتمع المسلمون ، فكرهوا له ذلك ، فقال : لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع ، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، لا وكس ولا شطط (٢) .

وقال معاوية بن قرة : لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن ، فقال :

(١) رواه البخارى فى « الحج » . الحديث (١٥٢٣) ، وأبو داود (١٧٣٠) ، والنسائى وابن حبان فى صحيحه . انظر : ابن كثير (٢٣٨/١ ، ٢٣٩) ، والفتح (٣٨٤/٣) .
(٢) انظر : قوت القلوب لأبى طالب المكى (١٧/٢) .

مَنْ أَنْتُمْ ؟ قالوا : نحن المتوكلون . قال : بل أَنْتُمْ المتأكلون . إنما المتوكل
الذى يلتقى حبه فى الأرض ، ويتوكل على الله عزَّ وجلَّ (١) .

ومن المشهور عنه : أنه رأى جماعة يقعدون فى المسجد بعد صلاة الجمعة ،
فأنكر عليهم ، وقال : لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللّهُمَّ
ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ! إنما يرزق الله الناس
بعضهم من بعض . أما قرأتم قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ
فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ؟ (٢) .

وقد حكوا عن شقيق البلخى - وهو من أهل العبادة والزهد - أنه ودَّعَ
صديقه إبراهيم بن أدهم ، لسفره فى تجارة عزم عليها . ولم يلبث إلا مدة
يسيرة ، ثم عاد ، ولقيه إبراهيم ، فعجب لسرعة إيابه من رحلته ، فسأله عما
رجع به قبل أن يتم غرضه ، فقصَّ عليه قصة شهداها ، جعلته يغير وجهته
ويلغى رحلته ، ويعود قافلاً .

ذلك أنه نزل للراحة فى الطريق ، فدخل خربة يقضى فيها حاجته ، فوجد
فيها طائراً أعمى كسيحاً لا يقدر على حركة ، فرقَّ لحاله ، وقال : من أين
يأكل هذا الطائر الأعمى الكسيح فى هذه الخربة ؟ ولم يلبث أن جاء طائر آخر
يحمل إليه الطعام ويمده به ، حتى يأكل ويشبع ، وظل يراقبه عدة أيام وهو
يفعل ذلك ، فقال شقيق : إن الذى رزق هذا الطائر الأعمى الكسيح فى هذه
الخربة لقادر على أن يرزقنى ! وقرر العودة .

وهنا قال له ابن أدهم : سبحان الله يا شقيق ! ولماذا رضىت لنفسك أن
تكون الطائر الأعمى العاجز الذى ينتظر عون غيره ، ولا تكون أنت الطائر
الآخر الذى يسعى ويكدح ويعود بثمرة ذلك على من حوله من العمى

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب « التوكل » برقم (١٠) .

(٢) الجمعة : ١٠

والمقعدين؟! أما علمتَ أن النبي ﷺ قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ؟ (١) .

فقام إليه شقيق وقبّل يده وقال : أنت أستاذنا يا أبا إسحاق !

* *

• المحققون يردون على معطلى الأسباب :

الحق أن المعرضين عن الأسباب بالكلية لا سند لهم من قرآن ولا سُنّة ، ولا من عمل الصحابة وتابعيهم بإحسان . وهم فى حاجة إلى الاعتذار عنهم مما ارتكبوه ، لا التأسى بهم فيما فعلوه !

ولو أن المسلمين فى خير القرون ساروا على هذا النهج ، ما انتصر لهم دين ولا قامت لهم دولة ، ولا تأسست لهم حضارة ، ولا مُكِّن لهم فى الأرض ، فإن هذا التوجه السلبي غريب على العقل الإسلامى ، والروح الإسلامى ، والنهج الإسلامى ، الذى يعمل لتكوين الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح ، والأمة الصالحة ، والدولة الصالحة .

والدليل على أنه ليس فضيلة محمودة ، ولا فريضة مطلوبة : أنه لا يمكن تعميمه وطلبه من الناس كافة ، لأنه غير موافق لشرع الله وأمره ، ولا لِسُنّته الثابتة فى ربط المسببات بالأسباب .

ولذا أنكره فقهاء الأمة المتبوعون ، وأئمتها المعترفون .

فهذا الإمام سفيان بن سعيد الثورى - وهو إمام فى الفقه ، وفى الحديث ، وفى الزهد واليقين - يقول :

« العالم إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للظلمة ، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه ، والجاهل إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للفساق » ! (٢) .

(١) حديث صحيح متفق عليه عن ابن عمر ، وحكيم بن حزام ، كما فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٦١٢ - ٦١٤) .

(٢) ذكره أبو طالب المكي فى « قوت القلوب » (١٦/٢) .

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى : « قيل : لا يستحق التوكل إلا مَنْ لم يخالط قلبه خوف من شيء ألبته ، حتى السبع الضارى ، والعدو العادى ، ولا مَنْ لم يسع فى طلب رزق أو مداواة ألم ! والحق أن مَنْ وثق بالله ، وأيقن أن قضاءه عليه ماض ، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب ، اتباعاً لسُنَّته (تعالى) وسُنَّة رسوله ، فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم فى الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال للذى سأله : أعقل ناقتى أو أدعها ؟ قال : « اعقلها وتوكل » ، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل » (١) .

ومن نقد الصوفية فى مسلكهم هذا نقداً موضوعياً ، وإن لم يخل من حرارة وشدة : الإمام أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه الشهير « تليس إبليس » . فقد ذكر حكاياتهم ، وعقَّب عليها بالرد فى ضوء الأصول الشرعية .

نقل رحمه الله عن أحمد بن أبى الحوارى قال : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : لو توكلنا على الله تعالى ما بنينا الحيطان ، ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص .

وعن ذى النون المصرى أنه قال : سافرتُ سنين وما صحَّ لى التوكل إلا وقتاً واحداً : ركبْتُ البحر فكسر المركب ، فتعلقت بخشبة من خشب المركب فقالت لى نفسى : إن حكم الله عليك بالغرق فما تنفعك هذه الخشبة ؟ فخليت الخشبة ، وقطعت على الماء ، فوقعت على الساحل !

(١) نقله الحافظ ابن حجر فى الفتح (٢١٢/١٠) طبع دار الفكر المصورة عن السلفية .

أخبرنا محمد قال : سألت أبا يعقوب الزيات عن مسألة في التوكل ، فأخرج درهماً كان عنده ثم أجابني ، فأعطى التوكل حقه ، ثم قال : استحيت أن أجيبك وعندي شيء .

وعلق ابن الجوزي على ذلك فقال : قلة العلم أوجبت هذا التخليط . ولو عرفوا ما هيّة التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد . وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده ، وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب ، ولا ادخار المال . فقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَوْتَوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ ^(١) أى قواماً لأبدانكم . وقال صلى الله عليه وسلم : « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » ^(٣) .

قال : واعلم أن الذى أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ^(٤) ، وقال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ^(٥) ، وقال : ﴿ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ ^(٦) ، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ، وشاور طبيبين ، واختفى فى الغار . وقال : « مَنْ يَحْرُسْنِي اللَّيْلَةَ ؟ » وأمر بغلق الباب ^(٧) وفى الصحيحين من حديث جابر أن النبى ﷺ قال : « أَغْلِقْ بَابَكَ » . وقد أخبرنا أن التوكل لا ينافى الاحتراز (أى فى قوله : اعقلها وتوكل) .

(١) النساء : ٥

(٢) رواه أحمد عن عمرو بن العاص (٢٠٢/٤) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » (٢٩٩) ، والحاكم (٢٣٦/٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وابن حبان فى صحيحه « الإحسان » (٣٢١٠) ، (٣٢١١) وقال الهيثمى : رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح (٦٤/٤) .

(٣) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص .

(٤) النساء : ٧١ (٥) الأنفال : ٦٠ (٦) الدخان : ٢٣

(٧) فى الحديث : « أَغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ وَخَمِّرُوا آيَاتِكُمْ (أى غطوها) وَأَوْكُوا أَسْتِيقَتَكُمْ (أى اربطوا أفواه القرب) وَأَطْفُوا سُرُجَكُمْ » رواه مسلم وغيره من حديث جابر ، ورواه الترمذى وصححه من حديث أنس .

وقال الإمام ابن عقيل : « يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل . وأن التوكل هو إهمال العواقب واطراح التحفظ ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط ، الذى يقتضى من العقلاء التويخ والتهجين ، ولم يأمر الله بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع فى التحفظ . فقال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) ، فلو كان التعلق بالاحتياط قادحاً فى التوكل لما خص الله به نبيه حين قال له : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ وهل المشاورة إلا استفادة الرأى الذى منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو ؟ ولم يقنع فى الاحتياط بأن يكفه إلى رأيهم واجتهادهم ، حتى نص عليه ، وجعله عملاً فى نفس الصلاة وهى أخص العبادات . فقال : ﴿ فَلْتَقِمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (٢) ، وَبَيَّنَّ عِلَّةَ ذَلِكَ بقوله تعالى : ﴿ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (٣) ، وَمَنْ علم أن الاحتياط هكذا لا يقال : إِنْ التوكل عليه ترك ما علم . لكن التوكل التفويض فيما لا وسع فيه ولا طاقة . قال عليه الصلاة والسلام : « اعقلها وتوكل » . ولو كان التوكل ترك التحرز لخص به خير الخلق صلى الله عليه وسلم فى خير الأحوال ، وهى حالة الصلاة . وقد ذهب الشافعى رحمه الله إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله : ﴿ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ، فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز ، فإن موسى عليه السلام لما قيل له : ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ (٤) خرج . ونبينا صلى الله عليه وسلم خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه ، ووقاه أبو بكر رضى الله عنه بسد أثقاب الغار . وأعطى القوم التحرز حقه ، ثم توكلوا ، وقال عز وجل فى باب الاحتياط : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ (٧) وهذا لأن

(٣) النساء : ١٠٢

(٢) النساء : ١٠٢

(١) آل عمران : ١٥٩

(٦) يوسف : ٦٧

(٥) يوسف : ٥

(٤) القصص : ٢٠

(٧) الملك : ١٥

الحركة للذَّبِّ عن النفس استعمال لنعمة الله تعالى . وكما أن الله تعالى يريد إظهار نعمة المبداء ، يريد إظهار ودائعه ، فلا وجه لتعطيل ما أودع ، اعتماداً على ما جاد به . لكن يجب استعمال ما عندك ثم اطلب ما عنده .

وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عُدَّةً وأسلحة تدفع عنها الشرور ، كالْمُخْلَبِ والطُّفْرِ والْنَابِ ، وخلق للآدمى عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة ، ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع . وَمَنْ عَطَّلَ نعمة الله تعالى بترك الاحتراز فقد عَطَّلَ حكمته ، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جوعاً أو مرضاً . ولا أبله ممن يدعى العقل والعلم ويستسلم للبلاء . إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب ، وقلبه ساكن مفوّض إلى الحق ، منع أو أعطى . لأنه لا يرى إلا أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف إلا بحكمة ومصلحة . فمنعه عطاء في المعنى . وكم زين للعجزة عجزهم ، وسوّلت لهم أنفسهم أن التفريط توكل ، فصاروا في غرورهم بمثابة من اعتقد التهور شجاعة ، والخور حزماً . ومتى وُضِعَتْ أسباب فأهملت كان ذلك جهلاً بحكمة الواضع . مثل وضع الطعام سبباً للشبع ، والماء للرى ، والدواء للمرض . فإذا ترك الإنسان ذلك إهواناً بالسبب ، ثم دعا وسأل ، فرجما قيل له : قد جعلنا لعافيتك سبباً ، فإذا لم تتناوله كان إهواناً لعطائنا ، فرجما لم نعاذك بغير سبب لإهوانك للسبب . وما هذا إلا بمثابة من بين قراحه وماء الساقية رفسة بسحاة ، فأخذ يُصَلِّي صلاة الاستسقاء طلباً للمطر ، فإنه لا يُستحسن منه ذلك شرعاً ولا عقلاً « اهـ .

قال ابن الجوزى رحمه الله : فإن قال قائل : كيف أحترز مع القدر ؟ قيل له : وكيف لا تحترز مع الأوامر من المقدر ؟ فالذى قدر الذى أمر . وقد قال تعالى : ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (١) .

عن أبى عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يُصَلِّي على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال : أنت الذى تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر ؟ قال : نعم . قال :

فألق نفسك من الجبل وقل : قدر على ! فقال : يا لعين ؛ الله يختبر العباد ، وليس للعباد أن يختبروا الله تعالى .

قال ابن الجوزى : وفى معنى ما ذكرنا من تليسه عليهم فى ترك الأسباب أنه قد لبس على خلق كثير منهم بأن التوكل ينافى الكسب .

عن محمد بن عبد الله الرازى قال : سأل رجل أبا عبد الله بن سالم وأنا أسمع : أنحن مُستعبدون بالكسب أم بالتوكل ؟ فقال : التوكل حال رسول الله ﷺ والكسب سُنَّة رسول الله ﷺ ، وإنما سُنَّ الكسب لمن ضعف عن التوكل ، وسقط عن درجة الكمال التى هى حاله ، فمن أطلق التوكل فالكسب غير مباح له بحال إلا كسب معاونة ، لا كسب اعتماد عليه ، ومن ضعف عن حال التوكل التى هى حال رسول الله ﷺ ، أبيع له طلب المعاش فى الكسب ، لئلا يسقط عن درجة سُنَّته حين سقط عن درجة حاله .

وعن يوسف بن الحسين قال : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب ، فليس يجيء منه شيء .

قال ابن الجوزى رحمه الله : قلت : هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل ، وظنوا أنه ترك الكسب ، وتعطيل الجوارح عن العمل ، وقد بينا أن التوكل فعل القلب فلا ينافى حركة الجوارح ، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين ؛ فقد كان آدم عليه السلام حرّاً ، ونوح وزكريا نجارين ، وإدريس خياطاً ، وإبراهيم ولوط زارعين ، وصالح تاجراً . وكان سليمان يعمل الخوص ، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه ، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وقال نبينا ﷺ : « كنت أرى غنماً لأهل مكة بالقراريط » . فلما أغناه الله عزَّ وجلَّ بما فرض له من الفئ لم يحتج إلى الكسب . وقد كان أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة رضوان الله تعالى عليهم بزازين .

وكذلك محمد بن سيرين وميمون بن مهران بزّازين . وكان الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز خزّازين ^(١) ، وكذلك أبو حنيفة . وكان سعد بن أبي وقاص يبرى النبل ، وكان عثمان بن طلحة خياطاً . وما زال التابعون ومن بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب .

وعن عطاء بن السائب قال : لما استُخلف أبو بكر رضى الله عنه أصبح غادياً إلى السوق ، وعلى رقبته أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا : أين تريد ؟ فقال : السوق . قالوا : تصنع ماذا ؟ وقد وليت أمور المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟

وذكر ابن سعد بسنده عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : لما استُخلف أبو بكر جعلوا له ألفين . فقال : زيدونى فإن لى عيالا ، وقد شغلتمونى عن التجارة ، فزادوه خمسمائة .

قال ابن الجوزى رحمه الله : قلت : لو قال رجل للصوفية : من أين أطعم عيالى ؟ لقالوا : قد أشركت ! ولو سُئلوا عمن يخرج إلى التجارة لقالوا : ليس بمتوكل ولا موقن ، وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين . ولو كان أحد يخلق عليه الباب ويتوكل لقرب أمر دعواهم . لكنهم بين أمرين : أما الغالب من الناس ، فمنهم من يسعى إلى الدنيا مستجدياً ، ومنهم من يبعث غلامه ، فيدور بالزنبيل فيجمع له . وإما الجلوس فى الرباط فى هيئة المساكين ، وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح ، كما لا يخلو الدكان من أن يُقصد للبيع والشراء !

عن إبراهيم بن أدهم قال : كان سعيد بن المسيّب يقول : من لزم المسجد ، وترك الحرفة ، وقبل ما يأتیه ، فقد ألحف فى السؤال .

(١) أى يعملون فى الخزّ وهى ثياب تُنسج من صوف وإبريسم .

وكان أبو تراب يقول لأصحابه : مَنْ لبس منكم مرقعة فقد سأل ، ومن قعد في خانقاه أو مسجد فقد سأل .

قال ابن الجوزي رحمه الله : وقد كان السلف ينهون عن التعرض لهذه الأشياء ويأمرون بالكسب .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا معشر الفقراء ، ارفعوا رؤوسكم ، فقد وضح الطريق ، فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين .

وعن محمد بن عاصم قال : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى غلاماً فأعجبه سأل عنه : هل له حرفة ؟ فإن قيل : لا ، قال : سقط من عيني .

وعن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في تجر الشام .

منهم طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد (وهما من العشرة المبشرة بالجنة) .

وسئل أحمد بن حنبل : ما تقول في رجل جلس في بيته أو في مسجده وقال : لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ،

واستدل بالحديث المعروف في التوكل ، وفيه ذكر : « الطير تغدو خماساً » فذكر أنها تغدو في طلب الرزق . قال تعالى : ﴿ وَأَخْرَجُوا يَظْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٢) ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في

البر والبحر ، ويعملون في نخيلهم ، ولنا القدوة بهم . قال ابن الجوزي :

« وقد ذكرنا فيما مضى عن أحمد أن رجلاً قال له : أريد الحج على التوكل ؟ فقال له : فاخرج في غير القافلة ! قال : لا . قال : فعلى جراب الناس توكلت !

وروى الخلال عن أبي بكر المروزي قال : قلت لأبي عبد الله : هؤلاء

(٢) البقرة : ١٩٨

(١) المزمل : ٢٠

المتوكل يقولون : نقعد وأرزاقنا على الله عز وجل ! فقال : هذا قول رديء .
أليس قد قال الله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ (١) ، ثم قال : إذا قال : لا أعمل ، وجيء إليه بشيء قد عمل واكتسب ، لأى شيء يقبله من غيره ؟!

قال الخلال : وأخبرنا عبد الله بن أحمد قال : سألت أبى عن قوم يقولون : نتوكل على الله ولا نكتسب ! فقال : ينبغى للناس كلهم يتوكلون على الله . ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب . هذا قول إنسان أحمق .

قال الخلال : وأخبرنى محمد بن على : قال صالح : إنه سأل أباه - يعنى أحمد ابن حنبل - عن التوكل فقال : التوكل حسن ، ولكن ينبغى أن يكتسب ويعمل حتى يغنى نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قال : وسئل أبى وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ويقولون : نحن المتوكلون ، فقال : هؤلاء مبتدعون .

قال الخلال : وأخبرنا المروزي أنه قال لأبى عبد الله : إن ابن عيينة كان يقول : هم مبتدعة . فقال أبو عبد الله : هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا !

وقال الخلال : وأخبرنا المروزي قال : سألت أبا عبد الله عن رجل جلس فى بيته وقال : أجلس وأصبر وأقعد فى البيت ولا أطلع على ذلك أحداً ! فقال : لو خرج فاحترف كان أحب إلى ، فإذا جلس خفت أن يخرج به جلوسه إلى غير هذا . قلت : إلى أى شيء يخرج به ؟ قال : يخرج به إلى أن يكون يتوقع أن يرسل إليه .

قال الخلال : وحدثنا أبو بكر المروزي قال : سمعت رجلاً يقول لأبى عبد الله أحمد بن حنبل : إنى فى كفاية ، قال : الزم السوق تصل به الرحم وتعود به

على عيالك (أى إن الإمام أحمد رحمه الله طلب من الرجل السعى وإن كان
عنده كفايته ، ليعود بالنفع على غيره ، وبخاصة أرحامه) .

وقال لرجل آخر : اعمل وتصدق بالفضل على قرابتك .

وقال أحمد بن حنبل : قد أمرتهم - يعنى أولاده - أن يختلفوا إلى السوق
وأن يتعرضوا للتجارة .

قال الخلال : وأخبرني محمد بن الحسين أن الفضل بن محمد بن زياد
حدثهم قال : سمعت أبا عبد الله يأمر بالسوق ويقول : ما أحسن
الاستغناء عن الناس .

وروى الخلال عن أحمد بن حنبل قال : أحب الدراهم إلى درهم من
تجارة ، وأكرهها عندى الذى من صلة الإخوان .

قال ابن الجوزى : وكان إبراهيم بن أدهم يحصد ، وسلمان الخواص يلتقط ،
وحذيفة المرعشى يضرب اللبن ^(١) .

وقد اعتذر لهم أبو حامد الغزالي ، فقال : لا يجوز دخول المفازة بغير زاد
إلا بشرطين :

أحدهما : أن يكون الإنسان قد راض نفسه حيث يمكنه الصبر عن الطعام
أسبوعاً ونحوه .

والثانى : أن يمكنه التقوت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه آدمى
بعد أسبوع أو ينتهى إلى حلة أو حشيش يرجى به وقته .

وعلق ابن الجوزى على الغزالي بقوله : « أقبح ما فى هذا القول أنه صدر
من فقيه ! فإنه قد لا يلقى أحداً : وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له

(١) انظر : تلبس لابن الجوزي ص ٢٧٨ - ٢٨٥

الحشيش ، وقد يلتقى مَنْ لا يطعمه ، ويتعرَّض بمن لا يضيِّقه ، وتفوته الجماعة قطعاً ، وقد يموت ولا يليه أحد . أى لا يلى أمر تلقينه وتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه . . إلخ .

ثم قد ذكرنا ما جاء فى الوحدة (أى من النهى) ، ثم ما المخرج إلى المحن ، إن كان يعتمد فيها على عادة أو لقاء شخص والاجتزاء بالحشيش ؟ ومَنْ فعل هذا من السَّلف ؟ وكأن هؤلاء القوم يجزمون على الله سبحانه : هل يرزقهم فى البادية ؟ ومَنْ طلب الطعام فى البرية فقد طلب ما لم تجر به العادة . ألا ترى أن قوم موسى عليه الصلاة والسلام لما سألوا من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ، أوحى الله إلى موسى أن ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾^(١) وذلك أن الذى طلبوه فى الأمصار ، فهؤلاء القوم على غاية الخطأ فى مخالفة الشرع والعقل والعمل بموافقات النفس »^(٢) .

* *

● ابن القيم يرد على نفاة الأسباب ، وصلتها بالتوكل :

وممن دخل هذه المعركة بقوة : المحقق ابن القيم ، وذلك فى شرحه لمنازل الهروى ، الذى وصف الدرجة الثانية للتوكل بأنها « التوكل مع إسقاط الطلب ، وغض العين عن السبب ، اجتهاداً فى تصحيح التوكل » .

معناه : أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب ، لتصحيح التوكل بامتنان النفس .

قال : « وهذا الذى أشار إليه ، مذهب قوم من العباد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ، ويرى حمل الزاد قدحاً فى التوكل . ولهم فى ذلك حكايات مشهورة ، وهؤلاء فى خفارة صدقهم ، وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين ، ومع هذا فلا يمكن بشراً ألَبَتَه ترك الأسباب جملة .

(٢) تلبس إبليس ص ٣٠١

(١) البقرة : ٦١

فهذا إبراهيم الخوَّاص كان مجرداً في التوكل يدقق فيه ، ويدخل البادية
بغير زاد . وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض . فقيل له : لمَ
تحمل هذا ، وأنت تمنع من كل شيء ؟ فقال : مثل هذا لا ينقص من التوكل ،
لأن الله علينا فرائض . والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد ، وربما تحرق
ثوبه . فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته . وإذا
لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته . وإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة
ولا خيوط فاتهمه في صلاته .

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب ؟ أو ليست حركة أقدامه ونقلها في
الطريق والاستدلال على أعلامها - إذا خفيت عليه - من الأسباب ؟
فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً .

نعم . . قد تعرض للصادق أحياناً قوة ثقة بالله . وحال مع الله تحمله على
ترك كل سبب مفروض عليه . كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة .
ويكون ذلك الوقت بالله لا به . فيأتيه مدد من الله على مقتضى حاله . ولكن
لا تدوم له هذه الحال . وليست في مقتضى الطبيعة . فإنها كانت هجمة
هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها . فإذا استدعى مثلها وتكلفتها لم يُجب
إلى ذلك . وفي تلك الحال : إذا ترك السبب يكون معذوراً لقوة الوارد ،
وعجزه عن الاشتغال بالسبب . فيكون في وارده عون له ، ويكون حاملاً له .
فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المحال .

وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تُحكى عن القوم ، فهي جزئية
حصلت لهم أحياناً ، ليست طريقاً مأموراً بسلوكها ، ولا مقدورة ، وصارت
فتنة لطائفين :

طائفة ظننتها طريقاً ومقاماً ، فعملوا عليها ، فمنهم من انقطع . ومنهم من
رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها ، بل انقلب على عقبيه .

وطائفة قدحوا في أربابها ، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل ، مدَّعين

لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك ، ولا أخلّ بشيء من الأسباب . وقد ظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يوم أُحُد . ولم يحضر الصف قط عرياناً . كما يفعله مَنْ لا علم عنده ولا معرفة . واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ، يدلّه على طريق الهجرة . وقد هدى الله به العالمين ، وعصمه من الناس أجمعين . وكان يدخر لأهله قوت سنة ، وهو سيد المتوكلين . وكان إذا سافر فى جهاد أو حجٍّ أو عُمرة حمل الزاد والمزاد ، وجميع أصحابه ، وهم أولو التوكل حقاً . وأكمل المتوكلين بعدهم : هو مَنْ اشتَم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثراً من غبارهم . فحال النّبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها ، بها يعلم صحتها من سقيمها . فإن هممهم كانت فى التوكل أعلى من همم مَنْ بعدهم . فإن توكلهم كان فى فتح بصائر القلوب ، وأن يُعبد الله فى جميع البلاد ، وأن يوحّده جميع العباد ، وأن تشرق شمس الدين الحق على قلوب العباد ، فملؤا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً ، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان ، وهبّت رياح روح نسيمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً ، فكانت همم الصحابة - رضى الله عنهم - أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله فى شيء يحصل بأدنى حيلة وسعى ، فيجعله نصب عينيه ، ويحمل عليه قوى توكله « (١) .

* *

● عمارة الأرض مقصد شرعى وضرورة للأمة :

ثم هنا أمر مهم أغفله الصوفية الذين اعتقدوا التكسب والاحتراف منافياً للتوكل ، هذا الأمر هو : مراعاة مقاصد الشرع من المكلفين من نوع البشر .

(١) مدارج السالكين : ١٣٣/٢ - ١٣٥

فقد ذكر الإمام الراغب الأصفهاني : أن هذه المقاصد تتمثل في ثلاثة :
الأول : العبادة لله ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

الثاني : الخلافة عن الله . وإليها يشير قوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢) .

والثالث : العمارة للأرض ، وإليها يشير قوله : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) .

وعمارة الأرض : بإصلاحها وإحيائها وإشاعة الحياة والنماء فيها ، حتى يكون فيها جنّات من نخيل وأعناب ، وحدائق ذات بهجة ، وثمر ينظر إلى ينعه ، ويؤكل منه ، ويؤخذ حقه يوم حصاده ، وأنعام وخيل ، وأنهار وديار ، وصناعة وتجارة . . إلى آخر ما لا بد للحياة منه . .

وهذا عمل يجب أن يتعاون الناس فيه ، ويقوم كلُّ بما يمكنه من جهد ، ولا يجوز أن يعمل البعض ، ويظل الآخرون كلاً عليهم ، فيأخذون ولا يعطون ، ويستهلكون ولا ينتجون . فهذا ليس من العدل .

فالمتعطل عن الكسب والكدح في الحياة عالة على غيره ، فما لم يكن عاجزاً عن الكسب ، أو متفرغاً لطلب علم نافع ، فهو مذموم ، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض ، وأمسوا عبيداً لغيرهم من الأقوياء العاملين .

إن الإنسان المثالي في النصرانية هو « الراهب » الذي يعتزل الحياة ، فلا يعمل لها ، ولا يأكل من طيباتها ، ولا يستمتع بزيينة الله فيها ، حتى الزواج يُحرّمه على نفسه .

ولكن الإنسان المثالي في الإسلام هو الذي يجمع الحسنتين ، ويعمل

(٣) هود : ٦١

(٢) البقرة : ٣٠

(١) الذاريات : ٥٦

للدارين ، فيعمل لدينه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل للأخرة كأنه يموت غداً ،
كما جاء ذلك عن الصحابة .

إن الكسب والعمل الدنيوي ليس مجرد أمر مباح ، بل هو مطلوب ،
طلب استحباب أو طلب وجوب ، إذا نظرنا إلى ضرورته للمجتمع والأمة .
وهذا ما نبّه عليه الإمام الراغب رحمه الله في كتابه القيم « الذريعة إلى
مكارم الشريعة » فقال تحت عنوان « وجوب التكسب » :

« التكسب في الدنيا ، وإن كان معدوداً من المباحات من وجه ، فإنه من
الواجبات من وجه ، وذلك أنه لما لم يكن للإنسان الاستقلال
بالعبادة إلا بإزالة ضروريات حياته ، فيزالتها واجبة ، لأن كل ما لا يتم
الواجب إلا به فواجب كوجوبه .

وإذا لم يكن له إلى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ نعب من الناس ، فلا بد إذن
أن يعوّضهم تعباً من عمله ، وإلا كان ظالماً ، فمن توسّع في تناول عمل غيره
في مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك ، فلا بد أن يعمل لهم عملاً بقدر ما يتناوله
منهم ، وإلا كان ظالماً لهم ، سواء قصدوا إفادته أو لم يقصدوها ، فمن
رضى بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلا قليلاً ، يرضى منه بقليل من
العمل . . . ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعاً ، فإنه لم يأتمر لله تعالى
في قوله : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ ^(١) ، ولم يدخل في عموم قوله :
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ^(٢) . ولهذا دُمّ من يدعى
التصوف فيتعطل عن المكاسب ، ولم يكن له علم يؤخذ منه ، ولا عمل
صالح في الدين يُقتدى به . فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ،
ولا يرد إليهم نفعاً ، فلا طائل في مثلهم إلا بأن يكذبوا المشارع (المياه) ،
ويغلوا الأسعار .

(٢) التوبة : ٧١

(١) المائدة : ٢

ومن الدلالة على قبح فعل مَنْ هذا صنيعه : أن الله تعالى ذم مَنْ يأكل مال نفسه إسرافاً وبداراً ، فما حال مَنْ يأكل مال غيره على ذلك ، ولا ينيلهم عوضاً ، ولا يرد عليهم بدلاً « ؟! » (١) .

وقال فى موضع آخر : « مَنْ تعطلَّ وتبطلَّ فقد انسلخ من الإنسانية ، بل من الحيوانية ، وصار فى عداد الموتى » .

ونقل العلامة المناوى فى كتابه « فيض القدير » عن بعض الغارفين من الصوفية قوله : حكم الفقير (أى الصوفى) الذى لا حِرْفَة له كالبومة الساكنة فى الخراب ليس فيها نفع لأحد !

وقال العارف الخواص : الكامل مَنْ يسلك الناس (يدلهم على سلوك الطريق) وهم فى حرفهم (٢) . وهذا هو التصوف السليم ، والصراط المستقيم .



● إشاعة السلبية فى دنيا المسلمين :

وأحب أن أذكر هنا أن الصوفية لم يدعوا الناس جميعاً إلى توكلهم هذا ، بل دعوا إلى ذلك مَنْ زعموا أنهم خواص الناس والأقوياء منهم . وقالوا : إذا شكا الصوفى الجوع بعد خمسة أيام ، فالزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب .

ولكن خطر هذه الأفكار أنها شاعت فى دنيا المسلمين ، وأنشأت جواً من السلبية ، وإغفال سنن الله ، وإهمال أمر الحياة بين جماهير المسلمين ، وباتت

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب ص ٣٨٠ ، ٣٨١ تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجسى . نشر دار الصحوة بمصر .

(٢) فيض القدير (٢ / ٢٩٠ ، ٢٩١) فى شرح حديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف » .

هذه الأدبيات « المخدرة » هي القوت اليومي لعقول العوام في ديار الإسلام ، وكانت من أسباب التخلف الذى جعل المسلمين فى مؤخرة الأمم ، وقد كانوا فى طليعة قافلة الحضارة عدة قرون .

ومن المؤسف : أن نجد فى عصور التخلف - التى تراجع فيها الفكر الإسلامى الصحيح ، ليحل محله الفكر الخرافى ، أو الفكر المنحرف - قد ترعرعت فى الجو الدينى - الشعبى خاصة - أفكار وأفهام غير صحيحة ولا مستقيمة مع منهج الإسلام الكلى ، ولا مع أدلته الجزئية ، ولا مع مقاصده الشرعية ، واتخذ منها خصوم الاتجاه الإسلامى نكأة للطعن فى الإسلام نفسه ، وفى كل دعوة تنادى بالرجوع إليه عقيدة وحضارة ومنهاج حياة .

ومن ذلك : اعتبار « الزهد » رفضاً للعالم . واعتبار « التوكل » رفضاً للأسباب ، اعتماداً على شبهات واهية ، اعتبروها أدلة مُحْكَمَة ، لأن بعض الصوفية استدلوا بها .



● استدلالات مردودة :

فقد استدلوا هنا بموقف الخليل إبراهيم حين أُلْقِيَ فى النار ، فسأله جبريل : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ! فاعتبروا هذا إعراضاً عن الأسباب . والحق أن هذه القصة لم يصح بها سند ^(١) ، ولو صحَّت فالواضح : أن الأسباب هنا قد انقطعت ، ولم يبق إلا الله وحده ، وتوسيط جبريل هنا لا ضرورة له ، فعلمه تعالى بحال الخليل ، يغنى عن توسيط جبريل ، وكفى الخليل عليه الصلاة والسلام أنه لم يفتأ - منذ أُلْقِيَ فى النار - يقول : حسبى الله ونعم الوكيل . وهذا ما جاء فى الصحيح عن ابن عباس .

واستدلوا بموقف آخر للخليل عليه السلام ، حين ترك هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذى زرع ، وترك عندهما جراباً فيه تمر ، وسِقَاءً فيه ماء ،

(١) رواها الطبرى فى تفسيره (٤٥/١٧) من طريق معتمر بن سليمان التيمى عن بعض الصحابة .

فلما تبعته هاجر ، وقالت له : إلى مَنْ تدعنا ؟ قال : إلى الله . قالت : رضيتُ بالله (١) ، وهذا كان يفعله بأمر الله ووحيه ، كما قال الحافظ ابن رجب (٢) .

وفى رواية لهذه القصة فى البخارى : أن إبراهيم حين ترك أم إسماعيل وابنها وقى منطلقاً ، تبعته ، فقالت : يا إبراهيم ؛ أين تذهب وتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيّعنا . ثم رجعت (٣) . وما كان بأمر الله ووحيه ، يجب أن يُطاع تعبداً ، ولو لم يُعرف معناه ووجهه . كأفعال الخضر عليه السلام . ولكن لا يُقاس عليها . فلو أن رجلاً وضع امرأته وطفلها الرضيع فى بركة وتركهما ، لكان مسيئاً .

واستدلوا بما ذكرنا قبل من حديث : « لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » ، وقد نبهنا من قبل إلى ما ذكره الإمام أحمد وغيره : أن فى الحديث إشارة إلى السعى والتسبب .

وقال بعض العلماء : إنه سعى ، ولكنه سعى يسير ، والسعى اليسير لا ينافى التوكل . والحق أنه السعى الممكن لهذه الطير ، فليس عندها سعى أكثر منه ، فكل ما تملكه هو الغدو والانتشار . وبعضها يطير مسافات طويلة من أجل رزقه .

(١) رواه البخارى فى كتاب « الأنبياء » عن ابن عباس موقوفاً ، وفيه بعض كلمات مرفوعة (٣٣٦٥) . وقال ابن كثير فى « البداية والنهاية » (١/١٥٦ - طبع بيروت) : وفى بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات .

(٢) انظر : جامع العلوم والحكم (٥٠٣/٢) - طبع الرسالة . بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط .

(٣) هذه الرواية فى البخارى أيضاً عن ابن عباس برقم (٣٣٦٤) .

واستدلوا ببعض الأقيسة الفاسدة التي ذكرها بعض الشعراء ، كقول القائل :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين !

وهذا الكلام باطل مردود . فإن جريان قلم القضاء بما يكون ، لا يقتضى التسوية بين الحركة والسكون . فإن مما جرى به قلم القضاء أن فى الحركة بركة ، وأن فى الجمود هلكة ، وأن مَنْ جَدَّ وجد ، وَمَنْ زرع حصد ، وأن قلم القضاء كما يجرى بالمسببات يجرى بأسبابها .

وقد سئل النبى ﷺ عن الأدوية والأسباب والتقاة : هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هـى من قدر الله » . وهذا الجواب من روائع الكلم النبوى الذى يجب أن يُعلِّم للناس ويُشاع بين المسلمين . وهو : أن نرد قدر الله بقدر الله ، كما فى هذا الحديث . ونفر من قدر الله إلى قدر الله ، كما قال عمر . وندفع الأقدار بعضها ببعض ، كما نقل ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلانى : ليس الرجل مَنْ يستسلم للقدر ، إنما الرجل من ينازع القدر بالقدر !

وأما جعله السعى للرزق جنوناً ، فهو اتهام لكثير من الأنبياء - مثل سيدنا داود وسيدنا موسى ، وسيدنا رسول الله - وللصحابة الكرام ، وللعلماء الأعلام ، الذين اشتهروا بحرفهم مثل : الخصاف والقفال والبزاز والخصاص ، وأمثالهم - اتهام هؤلاء جميعاً بالجنون ، وهذا لا يقوله إلا مجنون !

وقوله : ويرزق فى غشاوته الجنين ، يعنى قياس الإنسان البالغ القادر الراشد على الجنين فى بطن أمه ، وهو قياس فاسد ، لأن حكمة الله اقتضت أن يهيىء للجنين رزقه بغير كسبه ولا اختياره ، حيث لا قُدرة له ، وبعد ولادته هياً الله له اللبن فى ثدى أمه ، فلا يدخل إلى جوفه إلا بحركة منه ،

وهو : أن يلتقم الثدى ويمتص منه بقمه ، وبعد أن تظهر له سن تقطع يُطلب منه أن يأكل . فأين هذا مما يقول الشاعر المخلّط ؟ !

* *

• متى تُذَمّ الأسباب :

إنما تُذَمّ الأسباب إذا تعلّق القلب بها وحدها ، وجعل كل اعتماده عليها ، ونسى مسببها وخالقها ، وجعل أن الأسباب لا تعمل وحدها ، فربما أهمل سبباً بعيداً أو خفياً ، أو أغفل شرطاً لازماً ، أو كان هناك مانع قوى يعوق سببه ويطلّ تأثيره . فإنه إذا بذر الحبة في الأرض الخصبة ، وتعهدتها بالرى والتسميد ونحو ذلك ، لا يملك تعهد البذرة في أعماق التربة ، ولا يملك تصريف الرياح ودرجات الحرارة والبرودة التي تؤثر فيها ، ولا الآفات السماوية التي يمكن أن تحيق بها ، فلا يملك المؤمن هنا إلا أن يقول بعد سببه واجتهاده : نبذر الحب ، ونرجو الثمر من الرب .

وقد ذكر القرآن لنا نموذجاً من الاعتماد على الأسباب الظاهرة وحدها ، فإذا هي لا تحقق نتائجها وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ ﴾ (١) .

لقد خذلوا وهم كثرة ، حيث غرّهم الكم ، وأذهلهم عن التوكل ، فلم يغن الكم الكثير شيئاً . على حين انتصروا وهم قلة ، إذ كان اعتمادهم على الله وحده ، بعد أن بذلوا ما استطاعوا .

* *

(١) التوبة : ٢٥

● ما تعجز عنه الأسباب تكمله القدرة للمتوكل :

وثمره التوكل هنا : أن المتوكل على الله حين يُقدّم من الأسباب - التي أمر بها - ما يقدر عليه ، ويدخل فى وسعه ، تُكمل له القدرة الإلهية العليا ما يعجز عنه ، ولا يدخل فى وسعه .

انظر إلى موسى عليه السلام ، وقد أوحى الله إليه : ﴿ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ (١) ، فخرج بقومه فى جنح الليل ، فارين من فرعون وملئه ، متجهين ناحية البحر ، والظاهر أنه خليج السويس . وشعر فرعون وجنوده بخروجهم ، فاتبعوهم مشرقين ، يريدون أن يفتكوا بهم ، فهم يملكون العدد والعُدَد ، مع الغيظ والغضب : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ * قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ (٣) .

لقد نظر أصحاب موسى إلى الأسباب وحدها ، فقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ . سيدركنا فرعون وجنوده ، وينكلون بنا ، ولا طاقة لنا بهم ، ولا نجاة لنا منهم ، فالبحر أماننا ، وهم من خلفنا !

ولكن كلم الله موسى لم يقف عند ظواهر الأسباب ، بل رنا ببصيرته إلى ما هو أعلى منها ، إلى خالق الأسباب ، وواضع السنن ، ومدبر الأمر كله . لقد فعل موسى ما أمر به وما قدر عليه ، وبقي ما لا يقدر عليه ، ولا حيلة له فيه ، ولكنه كان موقناً أن الله معه ، ولن يتخلى عنه ، وسيهديه إلى حل ينقذه ومن معه ، لا يعرف ما هو ، إلا أنه مستيقن من وقوعه .

وكيف لا ، وقد قال الله له منذ أرسله وأخاه هارون إلى فرعون :

(١) الدخان : ٢٣ (٢) الشعراء : ٥٤ - ٥٦ (٣) الشعراء : ٦١ - ٦٢

﴿ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (١) . لا عجب أن قال موسى بكل اطمئنان : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢) .

وقد هداه الله إلى المخرج من المأزق بأمر لم يكن في حسبانته ، ولا في حسبان أحد : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ وَأَرْزَلْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿ (٣) .

هذه هي ثمرة التوكل إذا انقطعت الأسباب .

وانظر إلى محمد ﷺ يوم الهجرة ، كيف أخذ بكل الأسباب الممكنة للبشر ، خطط فأحكم التخطيط ، ورتب فأحسن الترتيب ، وأعدَّ لكل أمر عُدتَه المناسبة ، هياً مَنْ بَيْتٍ فِي فِرَاشِهِ (عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ) ، وَمَنْ يَرِافِقُهُ فِي رَحِلَتِهِ (أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقِ) ، وَمَنْ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرِيْقَطٍ) ، رَاخِتَارَ الْغَارِ الَّذِي يَخْتَفِي فِيهِ أَيَّاماً حَتَّى يَهْدَأَ الطَّلَبُ عَنْهُ (غَارُ ثَوْرٍ) ، وَلَمْ يَخْتَرْ نَاحِيَةَ يَثْرِبَ تَعْمِيَةً عَلَى الْقَوْمِ ، وَهَباً مَنْ يَأْتِي لَهُ بِالزَّادِ وَالْأَخْبَارِ (أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ) ، وَمَنْ يَعْنَى عَلَى آثَارِهَا بِغَنَمِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا (عَامِرُ بْنُ فَهيرةٍ) .

ومع هذا كله استطاع القوم أن يصلوا إلى الغار ، وأن يتوقفوا عنده ، وهو ما جعل أبا بكر رضي الله عنه يقول مشفقاً على مصير الدعوة إن مسَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سوء : يا رسول الله ؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فيرد عليه النبي ﷺ قائلاً : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » أو كما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٤) .

لقد فعل الرسول الكريم ما قدر عليه ، وبقي ما لم يقدر عليه ، فتركه لربه وراعيه ، يدبره بما يشاء من الأسباب الخفية ، أو بغير الأسباب أصلاً إن

(٢) الشعراء : ٦٢

(١) طه : ٤٦

(٤) التوبة : ٤٠

(٣) الشعراء : ٦٣ - ٦٧

شاء : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

لقد كان الزمن الذى بين الكليم موسى والحبيب محمد - عليهما الصلاة والسلام - زمناً طويلاً امتد قروناً ، ولكن الموقفين متشابهان ، وتكاد العبارات تتفق بينهما ؛ عبارة موسى : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ ، وعبارة محمد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، ولا غرو ، فهما يصدران من مشكاة واحدة .

يُبد أن الله تعالى أنجى موسى بآية حسية منظورة هي « العصا » ، وأيد محمداً بجنود غير مرئية ، نظراً لأن الآيات التى أيد الله بها موسى كانت مادية حسية ملائمة لتلك المرحلة فى أطوار البشرية ، والآية الكبرى التى أيد بها محمداً صاحب الرسالة الخاتمة كانت آية معنوية أدبية هي : القرآن الكريم .

وفى غزوة بدر خرج النبى ﷺ لملاقاة المشركين ، وإن كانوا أكثر عدداً ، وأكثر عُدّة ، وأعظم غروراً ، ولكن ذلك لم يضعف من عزمه ، وفعل ما أمكنه فعله من إحكام وتدبير ، بعد الاستشارة والاستئذنة ، ثم ترك ما بعد ذلك لصاحب الأمر ، فأيدهم بألف من الملائكة مردفين ، وغشاهم النعاس أمنة منه ، ونزل عليهم من السماء ماءً ليطهرهم به ، وليربط على قلوبهم ، ويثبت به الأقدام . . ونصرهم الله ببدر وهم أذلة : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٢) .

وفى غزوة الأحزاب ، تجمع المشركون لغزو المسلمين فى عقر دارهم : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٣) .

(٣) الأحزاب : ١٠ - ١١

(٢) الأنفال : ١٧

(١) التوبة : ٤٠

لقد حفر الرسول الخندق حول المدينة لتعويق المغيرين ، وبات هو وأصحابه ليالى عدة فى كرب شديد ، ونقض يهود بنى قريظة العهد ، ووقفوا فى صف المهاجمين . وهنا لم يكن أمام الرسول والمؤمنين إلا التوكل على ربهم والاستغاثة به : « اللَّهُمَّ منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اللَّهُمَّ اهزمهم وانصرنا عليهم » (١) .

وهنا تجى ثمرة التوكل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (٢) ، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٣) .

* * *

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

(٢) الأحزاب : ٩

(٣) الأحزاب : ٢٥

الناس والأسباب فى عصرنا

والخلاصة : . أن الناس مع الأسباب أصناف أربعة :

● معطلو الأسباب :

الصنف الأول : الذين عطّلوا الأسباب وأعرضوا عنها - بأبدانهم وقلوبهم - بدعوى التوكل على الله تعالى . وهؤلاء منهم الصادقون المخلصون ، ومنهم المتظاهرون المدّعون . وقد بيّنا الموقف الشرعى من هؤلاء فى ضوء ما وضع الله من سنن ، وما شرع من أحكام ، معتمدين على المحكمات لا المشابهات ، من نصوص القرآن والسنة ، مستهدين بعمل الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، مستأنسين بأقوال كبار الأئمة ، وهداة الأمة ، القائمين لله بالحجة .

وأحب أن أقول : إن هذا الصنف لم يعد يكون مشكلة اليوم ، فوجوده نادر أو معدوم ، إلا ما كان من باب الادعاء أو التشبه بالصوفية الأقدمين ، فى حين ليس له علم يؤخذ عنه ، ولا عمل يُقتدى به فيه . وهو الذى شبهه بعضهم بالبومة الساكنة فى الخراب ! كما نقل ذلك العلامة المناوى رحمه الله .

❖

● المعتمدون على الأسباب دون مسببها :

والصنف الثانى : الذين تشبّثوا بالأسباب ، بجوارحهم وقلوبهم ، وغفلوا عن مسببها ، وخالقها ، فكل نظرهم إليها ، وكل اعتمادهم عليها ، حتى أمست وكأنها آلهة تُعبد مع الله ، أو من دون الله !

وهؤلاء للأسف الشديد هم أكثر الخلق . فلا يكاد أحدهم يرى الرزق إلا فى الوظيفة التى يقبض راتبه منها كل شهر ، أو فى البيت الذى يدر عليه الدخل كل مدة ، أو فى التجارة التى تعود عليه بالربح كل عام ، أو فى الشركة التى ساهم فيها ، أو فى أبيه الذى تكفل بالنفقة عليه ، أو بفلان الأمير أو الوزير أو الوجيه الذى يسنده فى منصبه ، أو يسهل له صفقاته .

ولهذا نرى أحدهم يقول : لولا معاونة فلان لهلكنا ، ولولا ما ورثناه من

أبينّا لضعفنا . . . وقلّما يذكر أحد ربه الذى هياً له هذا أو ذاك ، ورزقه به من حيث يحتسب ، ومن حيث لا يحتسب .

فكأن هؤلاء باتوا - فى أمر الرزق والتدبير - فى مرتبة دون مرتبة المشركين الذين حدّثنا القرآن عنهم أنهم كانوا يردون أمر الرزق والتدبير ، والإحياء والإماتة إلى الله سبحانه ، لا إلى أصنامهم ولا إلى أحد من خلقه ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿١﴾ .

✱

● المستعينون بالأسباب على المعاصي :

والصنف الثالث : أسوأ من الصنف الثانى ، فإن الصنف الثانى اعتمدوا على الأسباب فى المباحات ، وهؤلاء استخدموها فى المحرّمات . استعانوا بالأسباب المستخرّة من الله على معاص الله .

استعملوا ذكاءهم وتدبيرهم فى عصيان الخالق ، وإيذاء الخلق . واستخدموا قوتهم وجاههم فى البطش بالمستضعفين ، والعدوان على حقوق المغلوبين . وسخّروا أموالهم ومكاسبهم فى اتباع الشهوات ، وإشاعة الفاحشة ، وترويج الفساد فى الأرض .

وجعلوا من مناصبهم وولاياتهم أداة لظلم الضعفاء ، ومحاباة الأقوياء ، والإثراء من الحرام ، وإعلاء الباطل على الحق ، والمنكر على المعروف .

حتى العلم ، وجهوه لخدمة المادة على حساب الروح ، ولتسیر المنفعة على حساب القيم . بل علم الدين نفسه ، أحالوه آلة لاقتناص الدنيا ، وتفريخ الفتاوى لأمرءاء السوء ، وحكّام الجور ، فأحلّوا ما حرّم الله ، وحرّموا ما أحلّ الله ، وأسقطوا ما أوجب الله .

وكذلك الأدب والبيان ، وجهوه لترويج الفساد ، وإشاعة الفاحشة ، وتبرير ظلم الحكّام وحكم الظلّام .

وقد صورَّ شاعر النيل حافظ إبراهيم أنواعاً من هذا الصنف فأبدع في تصويره حين قال :

كم عالمٍ مدَّ العلومَ حبالاً	لوقية وقطيعة وفراق
وطبيبٍ قومٍ قد أحلَّ لطفه	ما لا تحلُّ شريعةُ الخلاق
قتلَ الأجنَّةَ في البطونِ ، وتارةً	جمعَ الدراهمَ من دمٍ مُهراق
أغلى وأثمنُ من تجاربِ علمه	يومَ الفخارِ تجاربُ الحلاق
وفقيهٍ قومٍ ظلَّ يرصدُ فقَّهه	لكيدةٍ أو مُستحلَّ طلاق
يمشى وقد نصبتُ عليه عمامةً	كالبرجِ ، لكن فوقَ تلٍّ نفاق
يدعونه عند الشقاقِ وما دروا	أنَّ الذي يدعونَ خدُنُ شقاق
وأديبٍ قومٍ تستحقُّ يمينه	قطعَ الأناملِ أو لظى الإحراق
في كفِّه قلمٌ يَمْحُ لُعا به	سماً ، وينفثه على الأوراق
يردُّ الحقائقَ وهي بيضٌ نصع	قدسيَّةٌ علويةُ الإشراق
فيردُّها سوداً على جنباتها	من ظلمة التَّمويه ألف نطاق

لقد جعل الله الأسبابَ لخلقه نعمة ، فجعلها هؤلاءِ نقمة ، حين انحرفوا بها إلى ما يسخط الله تبارك وتعالى .

ومثل هؤلاءِ : مَنْ شغلتهُم الأسبابُ عن أداءِ فرائضِ الله عزَّ وجلَّ ، فأولئك استعانوا بالأسبابِ على فعلِ المحظور ، وهؤلاءِ ألتهتهم عن فعلِ المأمور . كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

وقد ذكر النبي ﷺ الصلاة ، فقال : « مَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبِرْهَانًا وَنَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بِرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلْفٍ » (١) .

قال العلماء : مَنْ شَغَلَهُ عَنِ الصَّلَاةِ مُلْكُهُ حُشِرَ مَعَ فِرْعَوْنَ ، وَمَنْ شَغَلَهُ عَنْهَا مَنَاصِبُهُ حُشِرَ مَعَ هَامَانَ ، وَمَنْ شَغَلَهُ عَنْهَا ثَرَوَتُهُ وَكَتَوُزُهُ حُشِرَ مَعَ قَارُونَ ، وَمَنْ شَغَلَهُ عَنْهَا تِجَارَتُهُ وَكَسْبُهُ حُشِرَ مَعَ أُبَيِّ بْنِ خَلْفٍ .

❖

● من جمعوا بين السبب والتوكل على المسبب :

والصنف الرابع : هو الذى أخذ بالأسباب ، ولم يغفل عن مسببها ، فهو مع الأسباب بجوارحه وبدنه ، ومع ربه بعقله وقلبه . فهذا هو المتوكل حقاً .

هو الذى رعى سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَأَحْكَامِهِ فِي شَرْعِهِ ، مُوقِنًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي وَضَعَ الْأَسْبَابَ ، وَأَمَرَ بِاتِّخَاذِهَا ، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا أَثَارَهَا قَدْرًا وَشَرْعًا ، وَهُوَ - فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ - الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَعْطِلَهَا إِنْ شَاءَ ، وَأَنْ يَخْلُقَ مِنَ الْمَوَانِعِ مَا يَعُوقُ سِيرَهَا ، أَوْ يَبْطِلَ أَثَرَهَا .

هذا الصنف هو الذى أحسن الفهم عن الله ورسوله ، فعقل ناقته وتوكل ، وبذر الحب ، واعتمد على الرب ، ومشى فى مناكب الأرض التى ذللها الله أكلاً من رزق الله ، وباع واشترى ، ولكن لم تلته تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، ترك بيعه ، وجمد سببه ، ساعياً إلى ذكر الله ، فإذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ انتشر فى الأرض مبتغياً من فضل الله .

وهذا هو الذى سار عليه المرئون الكبار من أهل الطريق إلى الله .

فكانوا « يسلِّكون » الناس ، وهم فى حرفهم وأعمالهم الدنيوية ، التى يكسبون منها معاشهم ، وهى خليقة أن تكون عبادة لهم إذا هم اتقوا الله فيها ،

(١) رواه أحمد بإسناد جيد كما قال المنذرى ، وقال الهيثمى : رجاله ثقات :

(٢٩٢/١) ، وابن حبان فى صحيحه . انظر : الحديث (٢٨٣) من كتابنا « المنتقى من

الترغيب والترهيب » - طبعة دار الوفاء .

فأخلصوا فيها النية ، وأدوها بالإحسان الذى كتبه الله على كل شىء ، ورعوا
الحدود ، ولم يتعدوا الحدود (١) .

وقد كان بعضهم يقول : ما أجمل أن يجعل الفلاح فأسه مسبحة ،
ويجعل النجار منشاره مسبحة ، ويجعل الحداد مطرقة مسبحة . وهكذا .

وقد حكى الفقيه الربانى ابن عطاء الله السكندى عن بداية صلته
بشيخه أبى العباس المرسى ، وأنه كان يريد أن يقبس من إشعاعه الروحى ،
وتوجيهه الربانى ، ولكنه سمع من أصحابه من طلبة العلم أن الذى يصحب
مشايخ الطريق يضمّر حظه فى العلم الشرعى الظاهر . قال : فشقّ علىّ أن
يفوتنى العلم ، وشقّ علىّ أن تفوتنى صحبة الشيخ رضى الله عنه .

فلما ذهب إلى الشيخ كان أول ما بادره به أن قال :

« نحن إذا صحبنا تاجراً ، ما نقول له : اترك تجارتك وتعال ،
أو صاحب صنعة ، ما نقول له : اترك صنعتك وتعال ، أو طالب علم ،
ما نقول له : اترك طلبك وتعال . ولكن نقر كل أحد فيما أقامه الله
فيه ، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه .

قال : وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ ، فما قال لتاجر : اترك تجارتك ،
ولا لذى صنعة : اترك صنعتك ، بل أقرهم على أسبابهم ، وأمرهم بتقوى
الله فيها » (٢) .

* * *

(١) انظر : كتابنا « العبادة فى الإسلام » تحت عنوان « عمل الإنسان فى معاشه عبادة
بشروط » ص ٦١ ، ٦٣ - طبع مؤسسة الرسالة ، الطبعة التاسعة عشرة .
(٢) انظر : « لطائف المنن » لابن عطاء الله ص ١٨٨ ، ١٨٩ بتحقيق
الدكتور عبد الحليم محمود .